بين الشرق والغرب

قمـــر مصر ...

فى سماء باريس

الأستاذ راشد رستم

صديقى ...

لقد عدتَ يا صديقى إلى مصر بعد أن أكلتَ فى الغرب دراساتك ، وها أنت ذا اليوم من آحاد الوطن الذين بهم يستبشر ، ومنهم الخير ينتظر .

ولقد أدبتُ لك ما طلبت منى ـ فزودت لك بما شئت من النظرات ، ومررت على ماسألتنى أن أمر عليـــه من المشاهد ، وجستُ خلال ديار أردتَ منى أن أذكرك فيها ، كما أنى وصلت لك ماانقطع برحيلك مع من كان بينك وبينهم مودة ...

ولعل فيما قلت لك به من الرغبات مايخفف عنى ما أنت فيه الآن ، كما تقول ، من « وحشة المكان وغرابة السكان » ...

... أليس غريباً حقا أن يعود الوطن مكاناً للوحشة وأن يصير أهله موضعاً للغرابة ! .

* * *

لا تحزن يا صديقى على عودتك من هنا « هكذا سريعاً » كما تقول ، مع أنك مكثت فينا خمس سنوات كاملات ! وأنك خلفتنا هنا بعدك « نستمتع بحياة الغرب الهنيـة طويلا ، ونرشف من بحرها الطامى كثيراً وكثيراً » ...

تأكد يقينا أنك السابق فى رحلتك ، وأنك الفائز فى عودتك ، أما نحن فسنحتمل الغربة زماناً آخر ، إلى أن نلحق بك لنجتمع كما كنا نجتمع ، ونلتقى مثل تلاقينا ، ونلهو ونعمل كما كنا نلهو ونعمل ، ولا تحسبن للفوارق التى بيننا وبينك الآن حسابا ، فقد يستمتع المرء بالقليل كثيراً ، ويلهو بالكثير قليلا ...

أتظن يا صديقى أنه فى الإمكان أن يبقى هنا كل من يجىء إلى هنا ؟ أم أن له أن يبقى ليكون عليه أن يعود ! ...

إن الأوطان تنتظر أبناءها ...

« وهذه مصر أم الدنيا ، ولعـل الذين يقولون عنها ذلك هم الذين لم يروا غيرها . أو لعلهم هم الذين جاءوها من بلاد أقل منها » على رسلك يا أخى ... ما هكذا يقال عن الأوطان ...

وما لنا وهذا التحليل بل هذا التعلل ! . لماذا فكرت فيه ؟ ولما ذا يخطر على بالك وقد عشت فى بلاد كلها وطنية وحماسة للوطن ! أليس بلاد كل إنسان هى « أم الدنيا » عنده ؟

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام

إن مصر هى مصر ، وهى أم الدنيا ، وهى مما ليس منه بد ، رضيت بذلك يا صديقى أم حملت به تحميلا ...

وها أنا ذا أترك هذا الأمر قليلا . . فقد سرح منى الفكر أمام هـــذه الخاطرات الخطرات . . وما جئتنا به من النزعات الغريبات ، بل النزوات الغريبات ...

وقد لاحت منى نظرة إلى النافذة نحو العلاء فى السماء . وقد سكن الليل إلا من دوىّ المدينة العظيمة الساهرة ، فإذا قرباريس يطل خلال الستائر الشفافة ، ساخراً من ضوء مصباحى الصغير ، ضاحكا مما أنا فيه من تفكير ، وما جئت به أنت يا صديقى من تعبير ...

إن هذا القمر يذكرنى بأصفى سماء يسبح فيها قمر .. يذكرنى « بأقمار » فى مصر كثيرة . فى شمالها وصعيدها ، فى غيطانها وعند غدرانها ، فى الريف والحضر ، عند السواقى وتحت الشجر ، على رمال الصحراء ، عند سفح الهرم . بين المعمور وبين المهجور ، فى البحر وفى النهر ، فى الليل وبعض النهار ، وحيداً وغير وحيد ، ثم قمراً فى آخر الليل عالقاً بذيل الظلام ، مختفياً بموكب الفجر ، مختفياً أمام ذات الخدر وقد أزاحت عن وجهها الحجاب ...

هذا القمر المصرى لا أنساه وصوت الزمار البلدى الشجى آخر الليل عند سفح الهرم ، والأربعون قرناً تشاطرنا الحـظ والإيناس ...

هذا القمر لا أنساه مع نغمات الغاب ، فى جلسة الحصير بالريف ، وقد نام أهل القرى فى غسق الليل من قسوة النهار ، إلا قليـلا منهم الساهر السامع ، يستمتع وينتعش بنغمات الصبا والبياتى على صوت هذا الناب ، والهمّ به قد غاب ، وتلك المواويل

الحر وفيها أجناس الناس أجناس ، وفيها غرام أهل الغرام موكول إلى من هو رابض بين الضلوع ، وإلى ماهو صاعد مع الأنفاس ...

هذا القمر الساخر لا أنساه وهو ينظر إلينا صامتاً ونحن فى البيداء . . فيزيد التيه تيها ، ويجعل من الحقيقة خيالا ومن العقل خبالا ، ومن الرمال حبالا . . . ومن النفس حالا وحالا ـ هنالك فى العراء ، وسط رهبة السكون المخيف يزداد المجهول فى علمنا مجهولا ...

هذا القمر الباسم لأنساه فى بيتنا الكبير العتيق ذى الحركة المدوية نهاراً ، والسكوت المهيب ظلاماً ، وقد أطل القمر علىّ صغيراً كما يطل الليلة على كبيراً . وكانت مربيتى العجوز ، وقد احتوتنا رهبة الجدران العالية والغرف الواسعة ، تقول لى : اطفىء المصباح ياولدى . فهذا القمر ما أحلاه ، وهذا السناء ما أبهاه ، ثم تتولانا وحشة الليل فتأخذنا سنة من النوم ، ثم نصحو فإذا القمر قد تحرك فى بروج السماء قليـــلا ... فتقول العجوز : سبحان الخلاق ! ...

وها أنا ذا اليوم هنا فى باريس أطفىء الليلة هذا المصباح كما أطفأت أخاله من قبل ، فى تلك الليالى الخوالى ، وهذا هو القمر لايزال ما أحلاه ، وهذا هو الضياء لايزال ماأبهاه ...

وأنت يا قمر باريس ! هل أنت قمر ذاك الزمان ، وقمر ذلك البيت الكبير العتيق ، وقمر مربيتى العجوز ! أم زادتك هـذه السنون الثلاثون تحويلا وتحويراً ، كما زودتنى الليالى والأيام تحميلا وتعذيراً ...

هنا لك كنت تسمع أيها القمر حديثاً ساذجا ، بين صغير وعجوز ، كلاهما مغرم بالقمر المنير وبما يغرى الوجه المنير فى خيال هادىء ولطف جميل .

هنا لك كان يسمع الصغير أحاديث العجوز ، وهى تناجى القمر تسأله عن كل شىء وتطلب منه كل شىء ، تدعوه أن يحمل لها فى رهبة الليل وجلال الصمت سؤلها عند ربهـا « فالق الحب والنوى ، وفاطر السموات العـلا » تسأله أن يحمل سلامها إلى أهلها فرداً فرداً ، وأن يعود إليها فى غدها لتراه فى غدها ...

ثم تقول وكأنها قد أدت صلاتها ـ نم يا ولدى . نم وادع ربك يستجب لك ، وأنت ياقمر مُسّيت خيراً وفى حفظ الله ... »

ثم تقرأ الفاتحة وتنام إلى الصباح ...

نعم إن وجه هذا القمر يذكرنى الليلة تلك الأحاديث وذاك النغم وذلك الجو السحرى البرىء ، فيثير منى فى هذا الغرب وفى هذه السن تفكيراً .. قد يكون عن تلك السذاجة تكفيراً ...

وإن المرء لينعم بالخيال كما يشقى بالذكرى ، على أنه لا يدرى أكان خيراً له أن تقف به الليالى أم أنها به تجرى ...

وها هو ذا القمر يختفى وراء السحب وإلا فستخفيه منازل باريس . . فأين منهلك الفسيح يا مصر . . حيث يمتد البصر فيذهب فيه مع النهاية إلى اللانهاية ...

أين النخيل يا مصر لكى يختفى هذا القمر خلالها كما يختفى وجه الحسناء خلال أصابع الحسناء ...

يا صديقى ...

هذا القمر أول ماعرفناه كنا فى مصر ، وحقا إن لمصر قمرها كما أن لها غير القمر

أما أن يكون لمصر كل ما لغيرها ، فتلك أمنية يرجوها الجميع لها ، ولكن أين الشرق من الغرب ، وأين ماينهما من خيالات الحقيقة ، وحقائق الخيال ...

فاجعل الأمر سهلا ، ولا تحملنا مالاطاقة لنا به ، ولا تجعل مصراً من الغرب وهى فى الشرق ، بل اجعـل لمصر فى الشرق ما لمثلها فى الغرب .

اجعل من مصر أعظم ما يمكن أن يكون من مصر ، وستجدن منها إذن كل ما تطمع من حياة ذقتها غربا وتريدها شرقا ...

راشد رستم

أطلب نسختك قبل نفادها من كتاب :

دفاع عن البـــلاغة

فلم يبق منه إلا نسخ محدودة

يطلب من دار الرسالة

وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد